

الدرس الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللمسلمين أجمعين . قال الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى في كتابه المعنون بـ«عمدة الأحكام» :

كتاب الصلاة - باب صلاة الكُسُوفِ

١٥٢ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ الشَّمْسَ خَسَفَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَعَثَ مُنَادِيًا يُنَادِي: «الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ» ، فَاجْتَمَعُوا وَتَقَدَّمَ فَكَبَّرَ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي رَكَعَتَيْنِ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ .

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علَّمتنا وزدنا علماً ، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أما بعد :

قال المصنف الإمام عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى : ((باب صلاة الكُسُوفِ)) ؛ وصلاة الكسوف هي صلاة ترتبط بحدوث هذه الآية العظيمة من آيات الله تبارك وتعالى التي يَخْوَفُ بها عباده ويرشد دبحاً إلى كمال قدرته وعظيم تدبيره سبحانه وتعالى .

والمراد بالكسوف : أي كسوف الشمس أو القمر بذهاب نورهما أو شيء من نورهما ؛ ولهذا الكسوف تارة يكون كلياً وتارة يكون جزئياً ، وكل منهما تقام له هذه الصلاة .

والقصد من هذه الصلاة : الفرع إلى الصلاة لجوءاً إلى الله ؛ وهذا فيه أن الصلاة مفرع للمرء ، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

ولما كان الكسوف للشمس أو القمر آية عظيمة ومخيفة شرعت هذه الصلاة ، وهي صلاة رهبة وخوف ، صلاة الكسوف صلاة رهبة وخوف ، ونبينا عليه الصلاة والسلام خرج فزعاً خائفاً وأمر بجمع الناس وحشدهم والمناداة بـ«الصلاة جامعة» كما سيأتي ، فهي صلاة رهبة

وخوف وتختلف في صفتها عن كل الصلوات ؛ فإن في كل ركعة من ركعاتها الاثنتين ركوعان ،
ففيها أربع ركوعات وأربع سجادات ، وهي صفةٌ تختلف عن سائر الصلوات .
وهي سنة مؤكدة في قول جمهور أهل العلم ، ومن أهل العلم من أوجبها استدلالاً بأمر النبي
صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالفرع إلى الصلاة كما سيأتي معنا فيما ساقه المصنف رحمه
الله تعالى من أدلة .

ويشرع أن تُصلى جماعة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا شرع أن ينادى لها كما
سيأتي معنا في الحديث «الصلاة جامعة» أو «الصلاة جامعة» ، ينادى لها بهذا النداء طلباً
لاجتماع الناس لهذه الصلاة .

وقد أورد المصنف رحمه الله تعالى جملة من الأحاديث في بيان هذه الصلاة العظيمة صلاة
الكسوف ؛ بدأها بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ((أَنَّ الشَّمْسَ خَسَفَتْ عَلَى
عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَعَثَ مُنَادِيًا يُنَادِي : الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ)) مبتدأ وخبر ،
أو « الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ » بنصب «الصلاة» على الإغراء والحث ، و«جامعة» حال أي حال
كونها جامعة ، «الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ» أو «الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ» .

((فَاجْتَمِعُوا)) أي اجتمع الناس من أجل هذه الصلاة التي تُجمعوا لها ؛ وهذا يفيدنا أن المشروع
في صلاة الكسوف أن تكون جماعة ، ولهذا شرع أن ينادى لها بهذا النداء .

ولا يشرع لهذه الصلاة لا أذان ولا إقامة ، بل إن الأذان والإقامة لا يشرع في كل الصلوات إلا
الصلوات الخمس المكتوبة ، كل الصلوات ليس فيها أذان ولا إقامة ؛ لا العيدين كما مر معنا
ولا الكسوف ولا غيرها من الصلوات إلا الصلوات الخمس المكتوبة فهي وحدها التي يشرع لها
الأذان والإقامة .

وصلاة الكسوف يشرع لها المناداة بهذه الصيغة «الصلاة جامعة» ؛ لأن هذه الصلاة -صلاة
الكسوف- مرتبطة بحدث عظيم ، وقد لا يكون كل الناس شاهداً هذا الحدث وتنبهوا له ؛
فاحتاج الناس في هذا المقام إلى أن ينبهوا وأن يُجمعوا بهذا النداء «الصلاة جامعة» ، ولهذا لا
يشرع هذا النداء في صلاة العيدين كما مر التنبيه على ذلك لأن صلاة العيدين لها وقت
معروف يعرفه كل الناس ويجتمعون دون مناداة ، ولا يشرع في صلاة الاستسقاء كما يأتي لأن
صلاة الاستسقاء بناءً عن الحاجة ووجود القحط فيعين يوماً ومكاناً يجتمع الناس فيه ، لكن

هذه الصلاة لما كانت حدثا مفاجئا وآية مخيفة مفزعة ولا يتنبه لها أكثر الناس شرع حينئذ النداء بهذه الصيغة «الصلاة جامعة» أو «الصلاة جامعة» .

قال : ((فَاجْتَمِعُوا - أي الناس - وَتَقَدَّمَ - أي النبي صلى الله عليه وسلم - فَكَبَّرَ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي رَكَعَتَيْنِ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ)) ؛ هذه الصلاة كما قدّمت صلاة رهبة وخوف ولهذا اختلفت صفتها عن سائر الصلوات ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كَبَّرَ وصلى أربع ركعات في ركعتين وأربع سجعات ، بمعنى أنه كبر وقرأ الفاتحة ثم سورة طويلة كما سيأتي تفصيل ذلك ، ثم ركع وقال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، ثم شرع في قراءة الفاتحة وسورة بعدها ، ثم سجد سجدتين ثم قام وفعل مثل ذلك ؛ فكانت صلاة الكسوف كل ركعة فيها ركوعان وسجودان . وهذه الصفة صفة لصلاة الكسوف خاصة تميزت بها دون سائر الصلوات ، وجاء في بعض الأحاديث زيادة في عدد الركوع ، جاء في بعضها ست ركوعات ، وفي بعضها ثمان ركوعات ، جاء زيادة على هذا الحد ، ومن المعلوم أن الكسوف الذي كان في زمن النبي عليه الصلاة والسلام إنما كان مرة واحدة فقط ، كسفت الشمس في حياته مرة واحدة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الكسوف مرة واحدة ؛ وعليه فإن المحفوظ في صفة صلاة الكسوف وما تواردت عليه أكثر الأدلة أن كل ركعة فيها ركوعان ، وما جاء في الأحاديث الأخرى زائداً على ذلك فهو كما نبه أهل العلم ومنهم الإمام أحمد والبخاري وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من أهل العلم غلطاً من الرواة ، معدود في الغلط من الرواة وفي أوهام الرواة . والمحفوظ الثابت أن صفة صلاة الكسوف أنها ركعتان في كل ركعة ركوعان .

قال رحمه الله تعالى :

١٥٣ - عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بِكُمْ)) .

فيما يتعلق بالحديث الأول حديث عائشة قول «الصلاة جامعة» عرفنا أن هذا نداء لهذه الصلاة ، ويكرر هذا النداء بحسب الحاجة مرتين أو ثلاث بحيث يُطمأن أن الناس بلغهم وعلموا وسمعوا ، لا يكتفى بمرة واحدة بل يكرر المرة والمرة والثلاث بحسب الحاجة حتى يُطمأن إلى أن الناس بلغهم وسمعوا وعرفوا أن في دعوة للاجتماع لهذه الصلاة .

قال رحمه الله تعالى : عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بَكُمْ)) هذا الحديث يفيد أن صلاة الكسوف يشرع بعدها أن يُخطب خطبة للناس يبيّن له فيها ما يهمهم مما يتعلق بهذا الحدث وهذه الآية التي يخوف الله سبحانه وتعالى بها عباده .

ومن العلماء من قال إن هذه الخطبة تستحب مطلقا في كل صلاة كسوف ، ومنهم من قال إنها تستحب عند الحاجة إذا كان هناك أمر يحتاج إلى أن ينبه عليه نُبّه . فمن أهل العلم من يرى إنها لازمة في كل صلاة كسوف ، ومنهم من يرى إنها عارضة ومعنى ذلك إنها لا تفعل هذه الخطبة إلا إذا كان ثمة أمر يحتاج أن ينبهوا عليه . والأظهر والله تعالى أعلم أن هذه الخطبة تُفعل عند كل خسوف حتى مع القول بالحاجة ، لأن الناس ولاسيما مع طول عهدهم بهذا الأمر وكثرة لهوهم وانشغالهم بأمس الحاجة إلى من يعظهم ولاسيما في مثل هذا الحدث العظيم والآية المخيفة الدالة على عظمة الخالق ولاسيما في بيان المنكرات والتحذير منها كما سيأتي أن ذلك كان من هدي النبي عليه الصلاة والسلام ومن فعله عندما كسفت الشمس في زمانه صلوات الله وسلامه عليه .

قال ((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ)) ولا ريب أنهما آيتان عظيمتان من آيات الله الدالة على كمال اقتداره وعظيم تدييره وتسخييره سبحانه وتعالى ، وجريان الشمس والقمر بحسبان بتقدير العزيز العليم سبحانه بهذا الانتظام وهذه الدقة دليل على عظمة الخالق وكمال المبدع جل في علاه ، وهما من آيات وجوب توحيده وإخلاص الدين له وإفراده تبارك وتعالى وحده بالعبادة .

قال ((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ)) أي بهذا التغير الذي يكون في الشمس والقمر يخوف الله سبحانه وتعالى بهما عباده كما قال الله عز وجل ﴿وَمَا نُزِيلُ

بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]

((وَأِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ)) جاء في بعض الروايات زيادة ((وَلَا لِحَيَاتِهِ)) ؛ أي لا علاقة لها بحياة عظيم أو موت عظيم كما هو المعتقد السائد عند الجاهلية الأولى ؛ كانوا يعتقدون أن خسوف الشمس أو القمر يرجع إلى ولادة عظيم أو موت عظيم ، ارتبط عندهم هذا الاعتقاد بالكسوف والخسوف ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((إِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ)) وهذا يستفاد منه فائدة مهمة تتعلق بالوعاظ والخطباء أن المفاهيم الخاطئة التي تنتشر عند الناس لا بد من إزالتها ولا سيما في المناسبات المتعلقة بها ، إذا كانت هناك مفاهيم خاطئة لدى الناس لا بد أن تزال وأن ينبه على أنها لا أصل لها وليست صحيحة ، فلما كان سائدا عندهم ومتعارفاً عندهم أن الكسوف والخسوف إنما هو لولادة عظيم أو لموت عظيم وأيضا صادف أن اليوم الذي كسفت فيه الشمس هو اليوم الذي فيه إبراهيم ابن النبي من جاريته مارية صادف ذلك اليوم ؛ فنبه النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الكسوف لا علاقة له لا بموت عظيم ولا بولادة عظيم ((لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ وَلَا لِحَيَاتِهِ)) إذاً ما هما ؟ ما شأن هذا الكسوف والخسوف ؟ مثل ما مر ((آيَاتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ)) .

قال : ((فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا)) أي افرعوا إلى الصلاة ((إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا)) ، ويصار إلى هذه الصلاة ولو كان وقت نهي ، ولو صادف وقت نهي ، مثل إذا كان الكسوف بعد صلاة العصر وقبل المغرب هذا وقت نهي عن الصلاة ، ولو كان وقت نهي تصلى لأنها معدودة في ذوات الأسباب .

قال ((فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بِكُمْ)) أيضا هذا يفيد أن بدء صلاة الكسوف يكون من وجود الكسوف ، إذا وجد الكسوف يكون بدأ وقت صلاة الكسوف ، وينتهي بانتهاء الكسوف ، إذا انتهى الكسوف انتهى وقت هذه الصلاة ؛ فوقتها يبدأ من بدء الكسوف وينتهي بانتهاء الكسوف ، لكن لو قُدِّرَ أن الناس صلوا الكسوف وانتهت الصلاة ولا يزال الكسوف باقيا هل يشرع لهم إعادة الصلاة ؟ الجواب : لا ، وإنما

يستمرون في الدعاء والاستغفار وغير ذلك من الأمور التي سيأتي ذكرها عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، لكن لا تعاد الصلاة وليس هناك ما يدل على مشروعية إعادتها ؛ ولهذا أيضًا كما نبه أهل العلم يراعى في هذه الصلاة -صلاة الكسوف- التطويل من عدمه بحسب الكسوف ، مثلاً لو كان الكسوف كلياً يطول فيه أكثر مما لو كان الكسوف جزئياً فيراعى في ذلك طول الصلاة من عدم طولها في حال هذا الكسوف كما نبه على ذلك بعض أهل العلم . والحاصل إذا انتهت الصلاة ولا يزال الكسوف باقياً لا تعاد الصلاة وإنما يستمر الناس في الاستغفار والدعاء وذكر الله سبحانه وتعالى والصدقة ونحو ذلك مما سيأتي التنبيه عليه .

قال ((فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بِكُمْ)) ؛ وقوله « وَادْعُوا » هذا يستمر إلى أن ينكشف ، أما الصلاة إذا انتهت لا تُعاد. قال ((حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بِكُمْ)) .

قال رحمه الله تعالى :

١٥٤ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ فَأَطَالَ الْقِيَامَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ - وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ - ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكْعَةِ الْأُخْرَى مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْأَوَّلَى ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ: ((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا ، ثُمَّ قَالَ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَزِيَّ عَبْدُهُ أَوْ تَزِيَّ أُمَّتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً)) . وَفِي لَفْظٍ: «فَاسْتَكْمَلَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ» .

قال رحمه الله تعالى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ((خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ فَأَطَالَ الْقِيَامَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكْعَةِ الْأُخْرَى مِثْلَ مَا

فَعَلَ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ انْصَرَفَ)) هذا فيه كما سبق أن صلاة الكسوف فيها أربع ركوعات وأربع سجودات ، كل ركعة فيها ركوعان وسجودان ، ومما ينبه عليه في هذا المقام : أن إدراك الركعة لا يكون إلا بإدراك الركوع الأول ؛ فلو سبق الإنسان ووصل إلى المسجد والإمام في الركوع الثاني من الركعة الأولى ، فإذا سلّم الإمام فإن هذا المسبوق المشروع في حقه أن يقوم ويأتي بركعة بركوعين ، لأنه إذا لم يدرك الركوع الأول من الركعة تكون الركعة فاتته فيقضي ركعةً بركوعين ، فلا تُدرك الركعة في صلاة الكسوف إلا بإدراك الركوع الأول .

وأفاد هذا الحديث مشروعية إطالة القيام بإطالة القراءة في الصلاة ، ونبه - كما أشرت - بعض أهل العلم أن يراعى في ذلك حال الكسوف ، قد يكون الكسوف كلياً وقد يكون الكسوف جزئياً . وأيضاً مما يشرع أن تكون القراءة في صلاة الكسوف جهرية لا سرية كما دلت على ذلك الأحاديث ومنها حديث عائشة في صحيح البخاري وفيه قالت : «قَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً يُجْهَرُ بِهَا» .))

قال : ((ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكْعَةِ الْأُخْرَى مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْأُولَى)) أي صلى ركعة بركوعين وسجودين .

((ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ)) أي ذهب عنها ما كان فيها من خسوف أو كسوف . ((فَخَطَبَ النَّاسَ)) وهذا فيه مشروعية هذه الخطبة بعد الصلاة ، وهل هي لازمة أو عارضة ؟ قولان لأهل العلم تقدم الإشارة إليهما ؛ فمن قال لازمة قال إنها تستحب في كل كسوف ، ومن قال إنها عارضة قال لا تستحب إلا إذا كان هناك حاجة تقتضي ذلك . قال : ((فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ)) وهذا فيه أن هديه عليه الصلاة والسلام في خطبه استفتاحها بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى .

ثُمَّ قَالَ : ((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ ، وَكَبِّرُوا ، وَصَلُّوا ، وَتَصَدَّقُوا)) ؛ هذه أمور أربعة أرشد إليها عليه الصلاة والسلام عند الكسوف:

- ١- الدعاء بأن يكثر العبد دعاء الله سبحانه وتعالى .
- ٢- وأن يكثر من التكبير «الله أكبر الله أكبر» يكبر الله .
- ٣- وأن يفزع إلى الصلاة .

٤ - وأن يتصدق .

فهذه أمور أربعة ذكرها صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((ثُمَّ قَالَ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَعْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِيَّ عَبْدُهُ أَوْ تَزِيَّ أُمَّتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمَ -أي ما عند الله من العقوبة- لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) يستفاد من ذلك : أن المشروع في خطبة الكسوف أن تكون تخويفًا محضًا ؛ بتحذير الناس من الذنوب ومن مغبتها وسوء عاقبتها ويحذرون من موجبات سخط الله ومن النار .
والنبي عليه الصلاة والسلام في خطبته تلك في صلاة الكسوف نبّه على ذلك وحذّر من الذنوب ولا سيما أمهات الذنوب ، وأمهات الذنوب أربع : الشرك ، والقتل قتل النفس المعصومة ، والزنا ، والسرقة . وهذه الأربع جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع بقوله : ((أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ)) أي ألا إنما أشد الذنوب وأخطر الذنوب وأكبر الذنوب أربع : ((أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ : أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَسْرِقُوا)) ؛ فهذه أمهات الذنوب ، والنبي عليه الصلاة والسلام حذر في خطبة الكسوف من الذنوب وخوّفهم ومن تخويفه أن قال : ((وَاللَّهِ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمَ)) يعني ما عند الله من العقوبة ((لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) ، ثم حذر عليه الصلاة والسلام بشكل خاص من أمهات الذنوب وهي هذه الأمور الأربعة .

ومن يتأمل في الروايات الواردة في هذا الباب يجد أن النبي عليه الصلاة والسلام حذّر من هذه الذنوب وذكر أيضا النار التي توجبها هذه الذنوب وتكون سببا لدخول النار ، حتى إنه عليه الصلاة والسلام قال للناس في خطبته ((لَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا)) ، وقال عليه الصلاة والسلام ((فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ)) .

وكان في صلاته الكسوف حصل أمر عجيب رآه الصحابة من النبي عليه الصلاة والسلام ما رأوه فعله في أي صلاة من صلواته ؛ رأوه في وقت الصلاة وهو يصلي تقدم إلى الأمام ومد يده كأنه يريد أن يأخذ شيئا ، ثم بعدها بقليل رأوه رجع إلى الوراء كالخائف من شيء وسأله ، قال ((رَأَيْتَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ)) رآهما حقيقة يبصره الجنة والنار والصحابة صفوف من ورائه ما رأوا شيئا والنبي صلى الله عليه وسلم رأى الجنة والنار حقيقة !! هذه آية من آيات الله الدالة على كمال قدرته ، ولما رأى الجنة مد يده ليقطف عنقودا من عناقيدها قال ((لو قطفته لأكلتم منه

ما بقيت الدنيا)) وهذا يدل على الفرق الشاسع بين ثمر الدنيا وثمر الجنة ، قال ((لو قطفته - عنقود واحد- لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)). .

ورأى النار وكما وصف قال عليه الصلاة والسلام : ((رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا)) ، وقال ((فَلَمْ أَرَ مِنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ)) ، وأخبر أيضًا أن الناس يفتنون في القبور كفتنة الدجال ، ثم حذر عليه الصلاة والسلام من هذه الذنوب الكبار لكن تحذيره من هذه الذنوب الكبار جاء بطريقة تميزت عن تحذيره منها في سائر خطبه ؛ حيث حذر من هذه الذنوب الأربعة الكبار بذكره عليه الصلاة والسلام لرؤيته لأشخاص في النار يعذبون وذكر أسباب تعذيبهم هذه الأمور الأربعة ، كل واحد منهم سبب تعذيبه واحد من هذه الأمور الأربعة ، هذه الطريقة إنما كانت خاصة في هذه الصلاة ، ذكر رؤيته لأشخاص رآهم في النار يذوقون حرها ويصطلون بنارها وذكر سبب ذلك تحذيرا وإنذارا .

❖ أما ما يتعلق بالشرك وبيانه لخطورته فإنه عليه الصلاة والسلام قال لهم في خطبته كما في بعض روايات هذا الحديث قال : ((رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحْيٍ الْخُزَاعِيَّ يُجْرُ قُصْبَهُ -أي أمعاءه- فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ)) كان أول من بدل دين إبراهيم . فهذا فيما يتعلق بالتحذير من الشرك .

❖ فيما يتعلق بالتحذير من جريمة القتل يقول عليه الصلاة والسلام : ((رَأَيْتُ فِيهَا -أي النار- امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا رِبَطَتُهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) يعني كانت قتلت هذه القطة بحبسها لها ، فكان هذا القتل لقطة حبستها لا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ولا هي أطعمتها فكان ذلك موجبا لدخولها النار ؛ فكيف إذا بمن يعتدي على الأرواح المعصومة والنفوس المسلمة !! يتعدى عليها قتلا بأشنع أنواع القتل ، إذا كانت امرأة في هرة حبستها عُذبت بسببها في النار فكيف بمن يقتل النفس المعصومة والمرء المسلم المطيع لله سبحانه وتعالى؟! .

❖ وأما الزنا فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال كما في الحديث الذي معنا ((يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِي أَمَتُهُ)) فكان ذلك تحذيرًا من الزنا وبيانًا لشدة غيرة الله عز وجل ، والواجب في الصفات إمرارها كما جاءت ، وما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات يخصه ويليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

❖ وأما تحذيره من السرقة فقد جاء في خطبته في بعض روايات الحديث في خطبته بعد صلاة الكسوف أنه قال : ((رَأَيْتُ فِيهَا -أي النار- صَاحِبَ الْمَحْجَنِ يَجُرُّ قُضْبَهُ -أي أمعاءه- فِي النَّارِ ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمَحْجَنِهِ)) المحجن: العصا المعكوفة في أعلاها عكف ، فكان معه محجن هذا الذي يسرق الحاج فإذا مرَّ البعير وعليه متاع الحاج فعل هكذا بالمحجن وأخذ شيئاً من متاع الحاج بمحجنه ، إذا انتبهوا له قال المَعْدِرَةُ علق بمحجني ما انتبهت ، وإذا ما انتبهوا له أخذه ؛ كانت هذه طريقته في سرقة الحجاج . قال ((كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمَحْجَنِهِ ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمَحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ)) ، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام أنه رآه في النار يجر أمعائه في النار فكيف والعياذ بالله من يتعمدون مثلاً في المطاف أو في السعي النشل وسرقة الحجاج والمعتمرين ، حتى إن بعض الحاج تكون النفقة التي معه جمعها ربما عشرين ثلاثين أربعين سنة حتى يحج ، ويأتي بعضهم ويقطع حقيبته بمشط ويأخذ مال هذا الحاج !! فالنبي صلى الله عليه وسلم رآه يبجر قُضْبَهُ أي أمعاءه في النار - صاحب المحجن- .

فنلاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام في خطبة الكسوف حذّر من الكبائر وركز على هذه الأمور الأربعة ؛ الشرك والقتل والزنا والسرقة ، وهي أمهات الذنوب وأكبرها . وأيضاً خص النساء في خطبته تلك بموعظة وبيّن خطورة المرأة على المجتمع إذا لم تتق الله وتحفظ نفسها وتصون نفسها ؛ فجاء في خطبته التي وجَّهها للنساء وقد رأى النار عليه الصلاة والسلام قال ((رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءِ)) قَالُوا: «يَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: ((بِكُفْرِهِنَّ)) قِيلَ: «أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟» يَعْنِي هَذَا هُوَ الْمَوْجِبُ ؟ قَالَ: ((بِكُفْرِ الْعَشِيرِ -العشير: الزوج- وَبِكُفْرِ الْإِحْسَانِ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ -أي حياتك كلها معها- ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ)) يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، وذكر أن كفران العشير وكفران الإحسان من موجبات دخول النار . قال ((رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءِ)) هذا فيه تحذير للمرأة خاصة .

الحاصل أن الخطبة التي تكون بعد الكسوف ينبغي أن تستغل استغلالاً جيداً بوعظ الناس وتذكيرهم بالنار وتخويفهم من سخط الجبار وتحذيرهم من الذنوب وأن يركّز في الخطبة على أمهات الذنوب وهي هذه الأربع : الشرك والزنا والسرقة والقتل . وأيضاً يكون الأمر كما قدمت تكون الخطبة خطبة الكسوف تخويفاً محضاً ، لأن الصلاة أصلاً صلاة خوف وصلاة رهبة .

قال وَفِي لَفْظٍ: ((فَاسْتَكْمَلَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ)) وهذا كما تقدم معنا في صفة صلاته عليه الصلاة والسلام للكسوف .

أيضا مما ينبه عليه في هذا المقام : التركيز في الخطبة على المعاصي والتحذير منها بمناسبة الكسوف ، الكسوف ما هو ؟ الكسوف ذهاب نور الشمس كله أو القمر أو جزء منه ، ذهابٌ للنور ، والمعاصي ماذا تُحدث في قلب العاصي ؟ المعاصي عندما يَغشى الإنسان المعاصي ويرتكب المعاصي أي شيء تُحدث في قلبه ؟ تُذهب النور . فانظر الارتباط في التحذير من هذه المعاصي التي تُذهب النور من قلب العاصي نور الإيمان ، الإيمان نور وضياء والمعاصي تذهب هذا النور ، فناسب في خسوف الشمس بذهاب نورها أن ينبه الناس إلى هذا الذي يذهب عنهم نور الإيمان وهو المعاصي فيحذرون منها أشد التحذير .

من عبارات الشيخ بن باز رحمه الله عليه في هذا المقام كلمة جديرة بأن تقيّد ؛ يقول رحمه الله عليه : «المعاصي من أسباب خسف نور القلب» .

قال رحمه الله تعالى :

١٥٥ - عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ فِرْعَاؤُهَا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ ، حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَقَامَ فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ مَا رَأَيْتُهُ يَفْعَلُهُ فِي صَلَاةٍ قَطُّ ، ثُمَّ قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُهَا اللَّهُ لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُرْسِلُهَا يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَافْزِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ)).

أورد رحمه الله تعالى حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: ((خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ فِرْعَاؤُهَا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ)) ؛ قال أهل العلم هذه الخشية أن تكون الساعة لأن الساعة يسبق حدوثها تغير في هذا العالم ، ولهذا من أشرار الساعة طلوع الشمس من مغربها ؛ فالتغير الذي يكون في العالم العلوي من ذلك طلوع الشمس من مغربها هذا من الأمارات ، فهذا التغير الذي حصل في زمانه للكسوف جعل النبي صلى الله عليه وسلم يفرع خشية أن تكون الساعة ، وقال أهل العلم قال ذلك وخشي ذلك

عليه الصلاة والسلام قبل أن يعلم أنها تتأخر عنه وأنها لا تكون في زمانه عليه الصلاة والسلام ، قبل أن يعلم ذلك .

قال : ((فَقَامَ فِرْعَاوْنُ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَقَامَ فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ مَا رَأَيْتُهُ يَفْعَلُهُ فِي صَلَاةٍ قَطُّ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُهَا اللَّهُ لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرْسِلُهَا يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَافْرَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ)) قوله «فَافْرَعُوا» الفزع : شدة المبادرة إلى الشيء والمصارعة إليه ؛ فافزعوا أي سارعوا وبادروا إلى ذكر الله ؛ أي أكثروا من ذكر الله وأكثروا من الدعاء وأكثروا من الاستغفار ، ومر معنا ذكر التكبير والصدقة والصلاة ، وأيضا جاء في الصحيح في البخاري من حديث أسماء رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالعتاقة في الكسوف» والعتاقة عتق الرقاب في سبيل الله . فإذا يشرع في الكسوف : ❖ الصدقة .

❖ وعتق الرقاب في سبيل الله .

❖ والإكثار من ذكر الله وخاصة التكبير نص عليه .

❖ والإكثار من الدعاء وخاصة الاستغفار نص عليه يكثر من الاستغفار .

❖ وأن يفزع العبد إلى الصلاة .

وهذا التبعد لله عز وجل وهذا الخوف وهذا الفزع وهذه الصدقة وهذا الدعاء إلى غيره الذي يكون عند الكسوف لا يغيره كون الكسوف له أسباب حسية وقد يُعرف وقته من خلالها لا يغير هذه الأحكام ؛ ولهذا يقال أن مثلاً بعد يومين أو بعد ثلاثة أيام سيكون كسوف أو سيكون خسوف بإذن الله من خلال النظر للأسباب الحسية ؛ فهذه المعرفة من خلال هذه الأسباب الحسية لا يغير الأمر المعنوي المتعلق بالكسوف وهو أنه آية من آيات الله التي يخوف الله سبحانه وتعالى بها عباده . ولهذا يخطئ خطأ فادحاً من يلغي هذا التبعد ويستتهين بهذا التبعد ويقلل من شأن هذا التبعد باعتبار أن الكسوف حدثٌ يُعلم من خلال أمور أو علامات أو أشياء أو نحو ذلك .

فالحاصل أن الكسوف له سبب حسي قد يُعلم من خلاله بوقته ، وله سبب معنوي وهو أن الله سبحانه وتعالى يَحَوِّف عباده بهذه التغيرات لهاتين الآيتين العظيمتين من آياته تبارك وتعالى كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] .

وأختم هذا اللقاء بلطيفة مفيدة إنما أرويهما من باب التأكيد على أهمية عناية طالب العلم بمثل هذه المسائل التي قد لا تأتي إلا بين وقت ووقت آخر ويطول العهد بها ، فإذا لم يستحضرها كيف يكون منه أداء هذه العبادات وشرح هذه المعاني وتوضيحها للناس !! فأذكر أحد الأشخاص والكلام هذا قديم أخ ملتحي ومتدين لكن تخصصه في مجال الرياضيات أو شيء من العلوم الدنيوية لكنه متدين ظاهره التدين الخ فُعِين في قرية وبعد أيام التعيين بفترة ليست طويلة حصل عندهم كسوف ، يقول فتفاجئت جاءني أهل المنطقة وطرقوا علي الباب وقالوا الآن في كسوف وإمامنا مسافر عنده عمل وسافر غير موجود والجماعة ينتظرونك في المسجد حتى نصلي ، يقول حاولت أعذر منهم قالوا أبدا الناس كلهم هناك في المسجد فقط ينتظرون أن تأتي لتصلي بهم ما في إلا أنت ، يقول خلاص أنا آتيكم إن شاء الله ، يقول وأنا في نيتي كما أخبرني شخصيا بقصته يقول أنا في نيتي أن أذهب إليهم وأحاول أن أنظر واحد متميز بتدينه وأقدمه ألزمه بأن يتقدم ، يقول هذه نيتي يقول فأردت أيضا من باب الاحتياط أن أنظر كيف تصلى صلاة الكسوف أنا ماني مستحضر كيف صلاة الكسوف ، يقول فكتبي كلها في علوم الدنيا ما عندي ولا كتاب واحد في الفقه أو في الأحكام وفي ذلك الوقت ما كان فيه هاتف وإلا الهاتف الآن قد يساعد الإنسان ، توضأت ودخلت المسجد يقول لما دخلت المسجد قام الناس أجمعين قالوا جاء الشيخ جاء الشيخ ، يقول ووجدت نفسي كما يقال مكره أخاك لا بطل مضطر أن أقف في المحراب وأصلي بهم ، وأنا لا أدري كيف تصلى صلاة الكسوف ، يقول ووقفت استوتوا اعتدلوا واستوى الناس واعتدلوا ، قلت الله أكبر الله أكبر كبرت سبع تكبيرات ثم قمت الركعة الثانية وكبرت بعد تكبيرة القيام من السجود خمس تكبيرات ، وقرأت في الأولى سَبَّح وفي الثانية هل أتاك حديث الغاشية ، ثم قلت السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله ، يقول ولا في شايب خلفي مباشرة قال "ما شاء الله عيد" هم ينتظرون صلاة كسوف وهذا صلى بهم العيد !! يقول شايب مسن كبير قال "ما شاء الله عيد" .

فالحاصل أن الفقه مهم جدا ومثل هذه الغلطات يحصل مثلها وأشد ، رويت هذه القصة مرة لبعض الطلاب قال مرة في قرينتنا صلي على الجنائز بركوع وسجود ، يقول وضعوا الجنائز أمامهم وصلوا ركوع وسجود والجنائز أمامهم !! فإذا جهل الدين تحصل مثل هذا الغرائب والعجائب . نسأل الله أن ينفعنا وإياكم وأن يوفقنا لكل خير ، وأن يهدينا أجمعين سواء السبيل ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنه تبارك وتعالى غفور رحيم .

وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .